جامعة بسكرة

كلية الآداب واللغات

قسم الآداب واللغة العربية

المستوى: ثانية ليسانس دراسات نقدية

الأستاذة جوادي هنية

المحاضرة السادسة: الأجناس الأدبية السردية

1: المقامة المفهوم والنشأة

رغم الاهتمام الكبير الذي لاقاه الشعر في الثقافة العربية والغربية، عرف النثر منذ القديم وإلى يومنا هذا تحولات كثيرة تجلت في فنونه وأساليبه المختلفة. وتعد المقامات إحدى الفنون النثرية التي ظهرت في العصر العباسي، وهي من أهم فنون الإبداع في الأدب العربي من حيث الغاية التي ارتبطت بها، والمتمثلة في التعليم وتلقين الناشئة صيغ التعبير، وهي صيغ حليت بألوان البديع وجمال الأسلوب، وبذلك نجدها تتجاوز الشعر في احتوائها على المحسنات اللفظية. وسنسعى في هذه المحاضرة إلى الوقوف عند مفهوم المقامة وإبراز نشأتها وتطورها وخصائصها في الأدب العربي والعالمي.

1. مفهوم المقامة

1. 1 المقامة لغة:

وردت كلمة مقامة في معاجم اللغة العربية في مادة قوم: "المقام والمقامة: الموضع الذي تقيم فيه، والمقامة بالضم: الإقامة، والمقامة بالفتح: المجلس والجماعة من الناس... "[1] وجاءت الكلمة في القرآن الكريم بمعنى المكانة أو المنزلة، قال تعالى: "أيُّ الفَرِيقَيْنِ خَيْرُ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا[2]

واللفظان: مُقام ومَقام مشتقين من قام، وهو اسم مكان، ثم توسعت دلالته لتتعلق بكل ما يقال في مجلس ما له خصائص وسمات أدبية فني، وذهب أحمد الشريشي إلى أن "المقامات المجالس وواحدها مقامة

[1] ابن منظور: لسان العرب (مادة قوم) مج12، ص498
[2] سورة مريم: آ73

والحديث يجتمع له، ويجلس لاستماعه، يسمى مجلسا، لأن المستمعين للمحدِّث، ما بين قائم وجالس، ولأن المحدِّث يقوم ببعضه تارة، ويجلس ببعضه تارة أخرى."[3]

وتستعمل كلمة مقامة في الشعر الجاهلي بمعنيين، فتارة تستعمل بمعنى مجلس القبيلة أو ناديها على نحو ما نرى عند زهير بن أبي سلمى[4]:

وفيهم مقامات حسان وجوهها: وأندية ينتابها القول والفعل

إن جئتهم ألفيت حول بيوتهم : مجالس قد يشفى بأحلامها الجهل

وتارة تستعمل بمعنى الجماعة التي يضمها هذا المجلس أو النادي؛ على نحو ما نرى عند لبيد إذ يقول:

ومقامة غلب الرقاب كأنهم: جن لدى باب الحصير قيام

والكلمة تستعمل منذ العصر الجاهلي بمعنى المجلس، أو من يكون فيه[5]

أما في العصر الإسلامي، فقد توسع معنى كلمة مقامة، حيث يرى (بروكلمان) أن مفهوم الكلمة قد تطور بتطور الحياة، واتخذت سمتا دينيا، فصارت تعني مجلسا يقوم فيه شخصا بين يدي الخليفة، أو الأمير، حيث تلقى خطب وعظية، ثم صارت تقرن بالشعر والأخبار الأدبية وذكر الوقائع والأيام، فصارت تستعمل بمعنى المحاضرة، ولكنها في القرن التاسع تهبط من مستواها الرفيع إلى مستوى الكدية، والاستجداء بلغة مختارة.[6]

وجاء في صبح الأعشى بأن المقامات:" جمع مقامة بفتح الميم وهي في أصل اللغة اسم المجلس والجماعة من الناس، سميت الأحدوثة من الكلام مقامة، كأنها تذكر في مجلس واحد يجمع فيه الجماعة من الناس لسماعها، أما المقامة بالضم، فبمعنى الإقامة"[7]

1. 2 المقامة اصطلاحا

لقد توسع مفهوم المقامة في العصر الحديث وأصبحت مصطلحا خاصا تطلق على الحكاية وأحيانا على الأقصوصة، لها أبطال معينون وخصائص أدبية ثابتة ومقومات فنية معروفة.[8]

---

[3] مقدم فاطمة، خطاب المقامة لدى الشيخ محمد بن عبد الرحمن الديسي (مقاربة تداولية) مخطوط أطروحة دكتوراه علوم، جامعة وهران، الجزائر، ص3

[4] ينظر شرح ديوان زهير، ص 113

[5] ينظر: شوقي ضيف، المقامة، منشأة المعارف، القاهرة، ص7

[6] ينظر: إحسان عباس، نشأة المقامة في الأدب العربي، دار المعارف، القاهرة، د.ت، د. ط ص15

[7] القلقشندي أبو العباس أحمد بن علي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ج14، وزارة الثقافة، مصر، ص110

[8] عبد الملك مرتاض فن المقامات في الأدب العربي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1980، ص12

والمقصود بالمقامة في الأدب "قصة تدور حوادثها في مجلس واحد،"[9] فهي "نوع من القصص الأدبية القصيرة، تعتمد على الخيال في تأليف حوادثها، وترمي إلى تعليم اللغة أو سرد الموعظة أو وصف الأشياء أو إبراز المقدرة على صفة البديع واشتقاقها من القيام"[10]

ويذهب الناقد شوقي ضيف، إلى أن بديع الزمان الهمذاني، هو أول من أعطى كلمة مقامة معناها الاصطلاحي بين الأدباء، إذ عبر بها عن مقاماته المعروفة، وهي جميعها تصور أحاديث تلقى في جماعات، فكلمة مقامة عنده قريبة المعنى من كلمة حديث. وهو عادة يصوغ هذا الحديث في شكل قصص قصيرة، يتأنق في ألفاظها وأساليبها، ويتخذ لقصصه جميعا راويا واحدا هو عيسى بن هشام، كما يتخذ بطلا واحدا هو أبو الفتح الإسكندري الذي يظهر في شكل أديب شحاذ، لا يزال يروع الناس بمواقفه بينهم وما يجري على لسانه من فصاحة في أثناء مخاطبتهم.[11]

ويردف "وليس في القصة عقدة ولا حبكة، وأكبر الظن أن بديع الزمان لم يعن بشيء من ذلك فلم يكن يريد أن يؤلف قصصا، إنما كان يريد أن يسوق أحاديث لتلاميذه، تعلمهم أساليب اللغة العربية وتفقههم على ألفاظها المختارة[12]

فالمراد من فن المقامة التّعلم، وهي مجرد حديث قصير أورده بديع الزمان في قالب قصصي مشوق ممتع، غايته تلقين المتعلمين صيغ التعبير، ولهذا السبب جرى تسميتها مقامة، وليس قصة أو حكاية.

2. نشأة المقامات

2-1 المقامة في الأدب العربي

تعرض كثير من الدارسين لمسألة نشأة فن المقامة، واتفقوا على أن نشأة المقامات الأدبية كانت مشرقية، إلا أنهم اختلفوا حول المبدع الأول وصاحب الفضل فيها، ودار جدلهم حول ثلاثة أسماء هي: بديع الزمان الهمذاني وابن دريد وابن فارس.

وقد انقسموا إلى ثلاث فئات: مؤيد لبديع الزمان ومعارض وثالث وسط بينهما، ومن المؤيدين لبديع الزمان الهمذاني وعده المنشئ الأول لهذا النوع الأدبي، نجد الحريري(516هـ) صاحب المقامات، فقد ذكر ذلك صراحة في مقدمة مقاماته، حيث أورد: " وبعد فإنه قد جرى ببعض أندية الأدب الذي ركدت في هذا العصر ريحه، وخبت مصابيحه، ذكر المقامات التي ابتدعها بديع الزمان وعلامة همذان . رحمه الله . وعز

---

[9] ينظر، بطرس البستاني، أدباء العرب في الأعصر العباسية، ج2، دار الجبل، بيروت، ص389
[10] سليمان أحمد، معجم علوم اللغة العربية، دار النفائس، الأردن، ط1 2006، ص401
[11] شوقي ضيف، المقامة ص9
[12] المرجع نفسه، ص نفسها

إلى أبي الفتح الإسكندري نشأتها، وإلى عيسى بن هشام روايتها، وكلاهما مجهول لا يعرف، ونكرة، ونكرة لا تتعرف! فأشار من إشارته حكم، وطاعته غنم، إلى أن أنشئ مقامات، أتلو فيها البديع، وإن لم يدرك الظالع شأو الضليع...وأنشأت على ما أعانيه من قريحة جامدة، وفطنة خامدة، ورؤية ناصبة، وهموم ناصبة، خمسين مقامة"[13]

كما يشير الحريري في هذه المقدمة إلى أن مقاماته "تحتوي على جد القول وهزله، ورقيق اللفظ وجزله، وغرر البيان ودرره، وملح الأدب ونوادره، إلى ما وشحتها به الآيات، ومحاسن الكنايات، ورصعته فيها من الأمثال العربية، واللطائف الأدبية، والأحاجي النحوية، والفتاوي اللغوية، والرسائل المبتكرة، والخطب المحيرة، والمواعظ المبكية والأضاحيك الملهية، مما أمليت جميعه على لسان أبي زيد السروجي، وأسندت روايته إلى الحارث بن همام البصري، وما قصدت بالإحماض فيه إلا تنشيط قارئه وتكثير سواد طالبيه"[14]

وقد أخذ كثير من الباحثين والنقاد برأي الحريري بعده من المتفوقين في كتابة المقامات ومكانته مرموقة بينهم، ومن بين هؤلاء القلقشندي وابن خلكان في وفيات الأعيان واليافعي في مرآة الجنان وابن كثير في البداية والنهاية، حيث يورد هذا الأخير قوله في بديع الزمان الهمذاني:" صاحب الرسائل الرائقة، والمقامات الفائقة، وعلى منواله نسج الحريري، مقاماته، واحتذى حذوه، واقتفى أثره، واعترف في خطبته بفضله، وهو الذي أرشده إلى سلوك المنهج"[15]

ويمتد هذا الرأي إلى العصر الحديث، حيث يصر مارون عبود على أن " خطة المقامات هي من عمل البديع، فلا لابن فارس ولا لابن دريد يد في صنعها. فالهمذاني هو الذي ألبسها هذا الطراز الموشى وعلى طريقه هذه التي شقها سارت عجلة الأدب ألف عام. فعبثا نحاول العثور على أثر لهذه الخطة عند غير البديع".[16]

ويرى محمد غنيمي هلال الرأي نفسه، حيث يورد في كتابه الأدب المقارن إن "أول من اخترع المقامات في معناها الفني، وأعطاها هذا الاسم في العربية، هو بديع الزمان الهمذاني"[17]

لكن هذا الرأي لم يأخذ به بعض النقاد، ولم يرتضوا لأنفسهم إلا أن يعارضوه، لذا راحوا يبحثون عن المبدع الحقيقي لفن المقامات، منكرين إحراز الهمذاني قصب السبق في اختراعه. ووجد بعضهم في أحاديث أبو بكر بن دريد الأربعين التي وجدت فيها ملامح وصفات هي أقرب ما تكون لمقامات البديع،

---

[13] الحريري، المقامات ص11 من المقدمة
[14] الحريري، المقامات، ص نفسها
[15] ابن كثير، البداية والنهاية، صج11، مكتبة المعارف، بيروت، ط2، 1977، ص340
[16] ينظر مارون عبود، أدب العرب، دار الثقافة، بيروت،1960، د. ط ص305
[17] محمد غنيمي هلال، الأدب المقارن، مرجع سابق، ص224

فأخذ أصحاب هذا الرأي ينبشون في هذه الأحاديث، ويحللونها ليثبتوا مدى الشبه بينها وبين مقامات البديع، وكيف أن البديع نحا نحو ابن دريد في صنع مقاماته، فإن تم لهم ذلك جعلوا ابن دريد الرائد الأول لهذا الفن، ليكون أول من صنع المقامات في تاريخ الأدب العربي، ولكن تحت مسمى آخر هو الحديث[18]

وتحسن الإشارة إلى أن المقامة في الأدب العربي لم تتشكل بمعزل عن التطورات الأدبية التي شهدتها القرون الأربعة الأولى، إنما كانت تلك التطورات، والخاصة منها في مجال القصص هي المحضن الذي ترعرعت المقامة في وسطه، وذوبت فيها بعض خصائصه وسماته، ولكن المقامة، كأي نوع قصصي مبتكر، وظفت ملامح الموروث القصصي الذي سبقها أو عاصرها توظيفا جديدا، خضع فيه لشروطها، ولم تخضع هي له، بما جعلها تتصف، بصفات خاصة بها"[19]

2-2 المقامة في الآدب العالمي

عرفت المقامة منذ وقت مبكر في الأوساط الفارسية، على يد حميد الدين أبو بكر بن عمر البلخي (ثلاثا وعشرين مقامة) كتبت على نسق مقامات الحريري، أما في أوربا، فقد ظهرت بفعل تغلغل العناصر القصصية العربية منذ أواخر العصر الوسيط وأثناء العصر الحديث، وخاصة ما كان من موضوعه الرحلات وعجائب المخلوقات. ويؤكد الباحثون في الراهن أن الروح العربي الشرقي على العموم وجدت لها مكانها في الآداب الأوربية الممتازة والشعبية على السواء... فقد ترجمت مقامات الحريري إلى اللاتينية والألمانية والإنجليزية، وتأثر بها الكتاب المبدعون. وإن كان تأثيرها يبدو محدودا إذا ما قورن بتأثير كتاب ألف ليلة وليلة.

فأثر المقامة العربية والشرقية عموما في الآداب الغربية صعب تبين أثره لاعتمادها الأسلوب والإبهار البلاغي، ولكن مع ذلك "يمكن أن نرى أثرها في بعض القصص الإسباني الذي يصف لنا حياة المشردين والشحاذين. ولعل من الطريف أن لهذا القصص عندهم بطلا يسمى بيكارون (Picaroon) وهو يشبه من بعض الوجوه أبا الفتح الإسكندري عند بديع الزمان الهمذاني وأبا زيد السروجي عند الحريري.[20]

3. خصائص المقامات

---

[18] أحلام حلمي جبريل الطباخي، دراسات في مقامات البديع، رسالة ماجستير في اللغة العربية وآدابها، كلية الدراسات العليا الجامعة الأردنية كانون الثاني، 2003، ص9

[19] عبد الله إبراهيم، السردية العربية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب،، د.ت، د. ط، ص176

[20] مجموعة من الكتاب العرب، المقامة، دار المعارف، مصر، ط3، ص11

وصفت المقامة بأنها: أوضح الأنواع وأكثرها تحديدا وتميزا بين كافة أنواع الكتابة النثرية العربية في العصر الوسيط، فهي تتسم بالجدة في الصياغة والابتكار في البنية، الأمر الذي يحيل على ظهور نوع قصصي لم يكن موجودا من قبل[21]

تستند بنية المقامة كما أسس لها بديع الزمان الهمذاني إلى ركنين مهمين، الأول: راو ينهض بمهمة إخبارية محددة، وثانيهما: بطل ينجز مهمة واضحة، ومن خلاصة تفاعل الراوي والبطل، يتكون متن حكائي قوامه الرواية والحكاية، والعلاقة التي تربطهما، وهذا ما حافظ عليه الحريري مجاراة للهمذاني

المقامات حكايات مبتدعة من مؤلفيها وهي متخيلة، لا تستند إلى واقع حقيقي، أنشأها أصحابها لأغراض إبداعية، وأيضا للتسلية والإمتاع

-هيمنت على المقامة، خلال تاريخها الطويل، أغراض تقترن بكل عصر من العصور التي مرت بها، ففيما كانت أغراض الوعظ والإرشاد لصيقة بمراحل تكونها الأول، أصبت أغراض الظرف والتطفل والكدية، وما تستدعيه تلك الأغراض من شخصيات طفيلية وهامشية ومماجنة، سمة من سمات موضوعات المقامة في عصور ازدهارها، ثم تنوعت الأغراض التي تعنى بها في تاريخها المتأخر، فصارت وسيلة للوصف والمدح والتعليم وغير ذلك.[22]

يرى بعض النقاد أن المقامة ليست بالقصة، وإنما هي حديث أدبي بليغ، وهي أدنى إلى الحيلة منها إلى القصة، فليس من القصة إلا ظاهر فقط، أما هي في حقيقتها فحيلة يطرفنا بها بديع الزمان وغيره لنطلع من جهة على حادثة معينة، ومن جهة ثانية على أساليب أنيقة ممتازة. بل إن الحادثة لتي تحدث للبطل لا أهمية لها، إذ ليست هي الغاية، إنما الغاية التعليم والأسلوب الذي تعرض به الحادثة.[23]

-غلبة اللفظ على المعنى فالمعنى ليس شيئا مذكورا، إنما هو خيط ضئيل تنشر عليه الغاية التعليمية.

-اعتمادها على أسلوب التوثيق، حيث تبدأ بحدثنا فلان والمقصود به الراوية الذي يحكي عن البطل صاحب المغامرة. ومن أشهر رواة المقامات، نجد: عيسى بن هشام في مقامات بديع الزمان الهمذاني، والحارث بن همام في مقامات الحريري وأبي التقويم في مقامات ابن الجوزي والقاسم بن جريا ل في مقامات الجزري وسهيل بن عباد في مقامات اليازجي... وذلك لأن هؤلاء يقدمون أبطالا معروفين مثل أبي الفتح الاسكندري وأبي زيد السروجي وأبي نصر المصري وميمون بن خزام...

---

[21] عبد الله إبراهيم، السردية العربية، ص185

[22] المرجع نفسه، ص176

[23] مجموعة من الكتاب، المقامة، دار المعارف، مصر، ط3، ص9